سفر الوجود

فينومينولوجيا الذاكرة على قضبان الزمن

تأليف

الدكتور محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار والخبير والفقيه والمؤلف القانوني والمحاضر الدولي في القانون

الإهداء

إلى روح والدي الطاهرة، التي علمتني أن الزمن ليس خطاً مستقيماً نسير عليه، بل هو دائرة نعود فيها إلى حيث بدأنا، يحملنا القدر على ظهر قطار لا يتوقف إلا في محطة اللقاء الأول والأخير.

وإلى ابنتي الحبيبة صبرينال، يا من تجمعين في روحك أصالة النيل وعمق المتوسط وشموخ الأوراس؛ لكي تعلمي أن الشيخوخة ليست غروباً للشمس، بل هي ذلك الضوء الهادئ الذي يسمح لنا برؤية الظلال بوضوح، وأن كل رحلة بعيدة هي في الحقيقة عودة إلى الداخل، حيث يسكن الأزلي في مؤقت الجسد.

مقدمة عامة

أونتولوجيا الرحيل وصوت العجلات

في صباح ضبابي بارد، وقف رجل في السبعين من عمره على رصيف المحطة، ممسكاً بتذكرة قطار واحد، متجهاً إلى بلد بعيد لزيارة أخيه الذي لم يره منذ عقود. لم يكن هذا السفر مجرد انتقال جغرافي من مكان إلى مكان، بل كان رحلة وجودية من الحاضر إلى الماضي، من اليقظة إلى الحلم، من الحياة إلى ما قبل الموت. صوت عجلات القطار وهو ينطلق لم يكن

مجرد ضجيج ميكانيكي، بل كان نبضاً لزمن يهرب، ودقاً لساعة تقترب من الصفر.

هذا الكتاب سفر الوجود ليس رواية تقليدية، ولا مجرد مذكرات شيخوخة، بل هو أطروحة فلسفية وجودية عميقة تغوص في أعماق الذاكرة الإنسانية عبر سردها كرحلة قطار. إنه يستند إلى فلسفة الزمن عند برغسون، وفلسفة الذاكرة عند بيرك، وفلسفة الموت عند هايدغر، ممزوجة بحكمة شرقية صوفية ترى في الرحيل عودة إلى الأصل.

سنغوص في عشرين فصلاً موسعاً، كل فصل يمثل محطة زمنية في حياة هذا الرجل، وكل محطة تثير تساؤلاً فلسفياً حول الوجود، الحب، الفقد، الندم، والأمل. إنه كتاب لكل من شعر بأن القطار يسير بسرعة كبيرة، ولكل من يبحث عن معنى في المحطات التي مر بها، ولكل من يستعد للنزول في المحطة الأخيرة.

إنه دعوة للتأمل في رحلتنا جميعاً، حيث سنكتشف أن الوجهة ليست هي الأهم، بل الرحلة ذاتها، والظلال التي نتركها على قضبان الزمن قبل أن يختفي القطار في النفق المظلم.

الجزء الأول

المحطات الأولى صدى الطفولة والبراءة

الفصل الأول

صفارة البدء وأونتولوجيا الرحيل

تدوي صفارة القطار فتشق صمت الصباح، فتلك اللحظة ليست مجرد إشارة ميكانيكية للانطلاق، بل هي

إعلان عن بدء الوجود الزمني. يقف الرجل عند النافذة، ويرى المحطة تتراجع، وكأنه يودع حاضره ليغوص في الماضي. في فلسفة الرحيل، نجد أن الإنسان لا يبدأ رحلته عندما تضع قدمه على الأرض الجديدة، بل عندما تقرر روحه مغادرة المألوف. القطار هنا يجسد الجسد الزائل، والسكة تجسد القدر المحتوم، والتذكرة هي العقد الوجودي الذي وقعه الإنسان مع الحياة عند الولادة.

يصغي الرجل إلى إيقاع العجلات، ذلك الصوت الرتيب الذي يشبه دقات القلب، فيدرك أن الزمن ليس وعاءً فارغاً نملؤه بالأحداث، بل هو نسيج من الوعي يتشكل عبر الذاكرة. كل نقرة على القضبان هي لحظة وجودية تنقضي ولا تعود، مما يثير التساؤل الجوهري حول طبيعة الاستمرارية. هل نحن نفس الشخص الذي كان في محطة البداية؟ أم أن كل محطة تغير من جوهرنا شيئاً فشيئاً حتى نصبح غرباء عن ذواتنا الأولى؟

الفصل الثاني

رائحة التراب وفينومينولوجيا الحواس

عندما يمر القطار بمنطقة ريفية، تتصاعد رائحة التراب المبلل بالمطر، فتلك الرائحة ليست مجرد محفز شمي، بل هي مفتاح يغلق أبواب الحاضر ويفتح خزائن الذاكرة العميقة. تعود بالرجل إلى طفولته، إلى ذلك البيت الطيني، وإلى اليدين الخشنتين لجدته. في الفينومينولوجيا، تتجلى الحقيقة عبر الحواس قبل أن يدركها العقل، فالرائحة تحمل زمناً خاصاً بها، زمناً لا يخضع للخطية، بل يعيد الماضي إلى الحاضر بكثافته العاطفية.

يتأمل الرجل في تلك اللحظة كيف أن الجسد يحتفظ بسجل كامل لتاريخه، وكيف أن الحواس هي حراس الذاكرة الأمينون. التراب هنا يرمز إلى الأصل، ذلك العنصر الذي خُلقنا منه وإليه نعود، فتلك الرائحة تذكره

بفناء الجسد وبقاء الروح. في تلك اللحظة، يذوب الفاصل بين الداخل والخارج، بين الذاكرة والإدراك، ويصبح الرجل طفلاً مرة أخرى، ليس جسدياً، بل وجودياً، حيث كانت العالم بسيطاً والمعنى حاضراً في كل شيء.

الفصل الثالث

البيت الأول وجغرافيا الأمان

تمر المحطة القريبة من مسقط رأسه، فيستحضر صورة البيت الأول، الفناء الواسع، والشجرة القديمة التي كانت ظله الوثير. البيت في الفلسفة الوجودية ليس مجرد جدران وسقف، بل هو الملاذ الأول الذي يشكل وعي الإنسان بالأمان والانتماء. فقدان ذلك البيت الأصلي هو بداية الشعور بالاغتراب الوجودي، حيث يبدأ الإنسان رحلة بحث عن بيت آخر، قد يجده في حب، أو عمل، أو فكرة، لكنه يبقى دائماً حنيناً

إلى ذلك الملاذ البدئي.

يتساءل الرجل عن مصير تلك الجدران، هل لا تزال قائمة؟ أم أن الزمن قد محاها كما يمحو آثار الأقدام على الرمل؟ يدرك أن البيت الحقيقي لم يكن تلك الحجارة، بل كان الشعور بالاحتواء الذي توفره تلك الحجارة. الآن، وهو في السبعين، يدرك أن البيت أصبح داخله، في ذاكرته، في سكينة روحه، وأن الرحيل عن المكان الجغرافي لا يعني الرحيل عن البيت الروحي ما دام القلب عامراً بالذكرى.

الفصل الرابع

الألعاب وجديّة الطفولة

يتذكر ألعابه القديمة، تلك القطع الخشبية البسيطة التي كانت تبدو في عينيه آنذاك كنوزاً ثمينة، والعالم

كله مسرحاً لمغامراتها. في فلسفة اللعب، نجد أن الطفل يمارس جدية الحياة عبر اللعب، بينما البالغ يمارس لعب الحياة بجدية زائفة. تلك الألعاب لم تكن ترفاً، بل كانت مدرسة الوجود الأولى، حيث تعلم فيها قواعد الفوز والخسارة، الصداقة والخيانة، البداية والنهاية.

ينظر الرجل إلى يديه المرتجفتين الآن، ويتساءل عن تلك الطاقة التي كانت تدفعه للركض لساعات دون تعب. يدرك أن الجسد يتآكل، لكن روح اللعب قد تبقى إذا اختار الإنسان أن يرى العالم بعين الدهشة.
الطفولة ليست مرحلة عمرية نخرج منها، بل هي حالة روحية يمكن العودة إليها عبر الذاكرة والإبداع. في تلك اللحظة، يبتسم الرجل لطفله الداخلي الذي لا يزال يطل من وراء تجاعيد الوجه، مطمئناً إياه بأن الرحلة لم تنته بعد.

الفصل الخامس

الخوف الأول وظل السلطة

يستحضر الرجل خوفه القديم من أبيه، من الظلام، من العقاب، ذلك الخوف الذي شكل ضميره الأول وحدود سلوكه. الأب في التحليل النفسي والفلسفي يرمز للقانون والسلطة العليا، والخوف منه هو التدريب الأول على الخضوع للنظام الكوني. يتحول هذا الخوف تدريجياً من خوف من الأب إلى خوف من الله، ثم إلى خوف من الموت في الشيخوخة، مما يكشف عن استمرارية بنية الخوف في النفس البشرية.

يتأمل الرجل في كيف أن ذلك الخوف كان ضرورياً لنموه، فقد كان السور الذي حماه من الضياع، لكنه كان أيضاً القيد الذي كبح جماح حريته. الآن، وقد كبر الأب ومات، وأصبح هو الأب ثم الجد، يدرك أن السلطة الحقيقية ليست في القسوة، بل في الرحمة، وأن الخوف قد يولد الطاعة، لكن الحب وحده هو من يولد الولاء الحقيقي. يتصالح مع ظل أبيه في ذاكرته،

سامحاً ومسامحاً، محرراً نفسه من قيد الخوف القديم.

الجزء الثاني

محطات الوسط صخب الحياة وبناء الذات

الفصل السادس

المدرسة وتشكيل الوعي الاجتماعي

يمر القطار بجانب مدرسة قديمة، فيتذكر طابور الصباح، الزي الموحد، وصوت الجرس الذي كان يقسم الزمن إلى حصص محددة. المدرسة كانت أول مؤسسة تقوم بترويض الجسد والوعي وفق نظام اجتماعي، حيث يتعلم الطفل أن يكون جزءاً من كل، وأن يضبط إيقاعه

الداخلي على الساعة الخارجية. في فلسفة التعليم، يتجلى الصراع بين التلقين الذي يفرض المعرفة، والتنوير الذي يوقظ العقل.

يتذكر الرجل معلمًا أحبّه ومعلمًا خاف منه، ويدرك الآن أن الكلمات التي قيلت له قبل خمسين عامًا لا تزال ترن في أذنيه. كلمة تشجيع قد تبني إنسانًا، وكلمة قسوة قد تحطم روحًا. يتساءل عن المسؤولية الأخلاقية للمعلم كصانع للأجيال، وعن الظلم الذي قد يقع من معلم قاسٍ دون أن يدري. يدرك أن التعليم الحقيقي لم يكن في الكتب، بل في تلك اللحظات الإنسانية التي شكلت شخصيته وقيمه.

الفصل السابع

الصداقة ومرآة الآخر

يتذكر صديق الطفولة الذي شاركه الأحلام، والأسرار، وبراءة العمر. الصديق في الفلسفة الأرسطية هو النفس الأخرى، المرآة التي نرى فيها أنفسنا بوضوح. ألم الفراق الأول عندما انتقل الصديق لمدرسة أخرى كان الدرس الأول في فقدان الأحبة، وفي تعلم أن العلاقات الإنسانية معرضة للزوال مثل كل شيء في هذا الكون.

ينظر الرجل من النافذة، ويتساءل عن مصير ذلك الصديق، هل لا يزال حياً؟ هل يتذكره كما يتذكره؟ يدرك أن الصداقة الحقيقية لا تموت بموت الجسد، بل تبقى في الذاكرة كأثر طيب. في الشيخوخة، تتقلص دائرة الأصدقاء، لكن النوعية تتعمق، حيث يصبح الصديق الواحد أثمن من ألف معارف سطحيين. يتعلم الرجل أن الوحدة ليست غياب الناس، بل غياب من يفهمون لغة الروح.

الفصل الثامن

المراهقة وثورة الجسد

تتغير ملامح الوجه في الذاكرة، فتظهر ملامح المراهق، ذلك الكائن الهجين بين الطفل والرجل، بين البراءة والرغبة. يتذكر تغير صوته، نمو شعره، وشعوره بالغربة عن جسده الذي أصبح ينمو بسرعة لا يستطيع مواكبتها. الجسد في المراهقة يصبح موضوعاً للقلق وللفخر في آن واحد، وهو البداية لاكتشاف الهوية المستقلة.

يتأمل الرجل في تمرد ذلك المراهق على الأب والمدرسة، ويدرك الآن أن ذلك التمرد كان ضرورة نفسية لفرض الاستقلالية ولبناء الذات. بدون ذلك الصراع، لما استطاع أن يصبح رجلاً مستقلاً. يتصالح مع تلك العاصفة الداخلية، مقدراً لها دورها في صقل شخصيته، ومبتسماً لتلك الطاقة الهادرة التي كانت تدفعه لتحدي المستحيل.

الفصل التاسع

الحب الأول وصدمة المعنى

يستحضر الرجل أول حب، أول نظرة، أول خفقة قلب كادت توقف الزمن. الحب الأول في الفلسفة الوجودية هو صدمة تكسر براءة الطفولة وتدخل الإنسان في عالم المعنى والألم. هو اللحظة التي يدرك فيها الإنسان أن هناك شيئاً أكبر من ذاته، شيئاً يستحق التضحية، شيئاً يجعل الحياة تستحق أن تُعاش.

يتساءل الرجل عن مصير ذلك الحب، هل انتهى أم تحول؟ يدرك أن الحب الأول يترك أثراً لا يمحى حتى بعد سبعين عاماً، فهو البصمة التي شكلت مفهومه عن العلاقة والجمال. في الشيخوخة، يتحول الحب من شهوة جسدية إلى رفقة روحية، ومن تملك إلى عطاء، ومن نار تحرق إلى دفء يحمي. يتذكر أن الحب كان

الوقود الذي أبقى القطارMoving في أصعب المحطات.

الفصل العاشر

العمل وعبء الكسب

يمر القطار بمنطقة صناعية، فيتذكر الرجل سنوات العمل الطويلة، الراتب الأول، التعب، والمسؤولية. العمل في الفلسفة الماركسية والهيجلية هو وسيلة لتحقيق الذات، لكنه قد يتحول إلى غربة إذا أصبح مجرد أداة للكسب دون معنى. يتأمل الرجل في كيف أن العمل كان عبئاً ضرورياً، لكن الكرامة كانت في الجهد لا في المال، وفي الإخلاص لا في المنصب.

يدرك الآن أن النجاح المهني كان قناعاً اجتماعياً ارتضاه ليرضي المجتمع، وأن المنصب يبقى والبشر يرحلون. يتساءل عن التوازن بين الكسب المادي

والكسب الروحي، ويدرك أن أغلى ما كسبه لم يكن في حسابه البنكي، بل في ضميره، وفي العلاقات الإنسانية التي بناها بصدق. يتصالح مع سنوات الكد، مقدراً لها أنها كانت الثمن الذي دفعه لبناء حياة كريمة لأسرته.

الجزء الثالث

محطات النضج عمق المعنى ومسؤولية الاختيار

الفصل الحادي عشر

الزواج وشراكة المصير

يتذكر يوم الزفاف، ليس كحفل اجتماعي، بل كعقد وجودي ليس فقط قانوني. اختيار الشريك هو اختيار

لنصف الحياة، وشراكة في بناء مملكة صغيرة بعيداً عن ضجيج العالم. يتأمل في فلسفة الحب الزوجي بين العاطفة والالتزام، وكيف أن الزواج الناجح ليس هو الذي لا توجد فيه مشاكل، بل الذي يتم تجاوزها بالتسامح والتفاهم.

يتذكر الصراعات، الصمت، عتبات الغضب، ويدرك أن الصراع الزوجي كان ضرورياً لصقل الذات وكسر الأنانية. الزواج مدرسة صبر، حيث يتعلم الإنسان أن الحب ليس شعوراً عابراً، بل هو فعل إرادة يومي يتجدد مع كل شروق شمس. في الشيخوخة، يكتشف الرجل أن زوجته كانت الرفيقة الأكثر وفاءً، وأن الحب الحقيقي هو ذلك الذي يشيب مع الشعر، ولا يشيب مع القلب.

الفصل الثاني عشر

الأبناء وامتحان الخلود

يتذكر لحظة ميلاد أول طفل، ذلك الشعور بالمسؤولية الهائلة، والخوف المختلط بالفرح. الأبوة في الفلسفة الوجودية هي مشروع خلود، حيث يعيش الإنسان عبر أبنائه، ويودع فيهم أحلامه وقيمه. يتأمل في فلسفة التربية بين الحماية والتحرير، وألم فراق الأبناء عندما يكبرون ويرحلون لبناء حياتهم الخاصة.

يدرك الآن أن الأبناء ليسوا ملكاً له، بل هم أرواح مستقلة استودعها الله عنده لفترة محدودة. يتصالح مع فكرة الرحيل، مقدراً أن دوره كان البذرة، وأنهم هم الشجر الذي سيثمر بعده. يتذكر أن أغلى ما قدمه لهم لم يكن المال، بل كان الوقت، والحب، والقدوة الحسنة التي ستبقى معهم بعد رحيله.

الفصل الثالث عشر

منتصف العمر ووهم الاستقرار

يتذكر شعوره في الأربعين بأن الحياة طويلة والوقت واسع، ذلك الوهم بأن الوقت لا ينضب. في فلسفة الزمن، نجد أن الإنسان في منتصف العمر يعيش في وهم الخلود، يخطط لعشرين عاماً قادمة وكأنه مضمون البقاء. تأتي صدمة اكتشاف أول شعرة بيضاء أو أول مرض كأجراس إنذار توقظه من غفلته، وتذكره بأن القطار يسير بسرعة نحو المحطة الأخيرة.

يتأمل في خيبة الأمل من الأحلام المؤجلة، السفر الذي لم يحدث، والكتب التي لم تُكتب. يدرك أن التصالح مع الأحلام المؤجلة هو مرحلة نضج، حيث يتعلم الإنسان فن التخلي، ويدرك أنه لا يستطيع كل شيء، وأن القيمة ليست في تحقيق كل الأحلام، بل في الاستمتاع بالرحلة ذاتها. يتعلم أن الروتين قد يكون قاتلاً، لكنه أيضاً قد يكون ملجأً من فوضى الحياة.

الفصل الرابع عشر

الفقد وتعلم معنى الغياب

يتذكر موت صديق عزيز في سن الشباب، تلك اللحظة التي تحول فيها الموت من حقيقة مجردة إلى جرح شخصي نازف. الموت في الفلسفة الوجودية هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة، وهو ما يعطي للحياة معناها، فلو لم يكن هناك موت، لما كانت للحياة قيمة. يتأمل في فلسفة الحداد، وكيف أن فقدان الآخر يعمق فهمنا لقيمة الوجود، ويجعلنا أكثر رحمة بالباقيين.

يتذكر فقدان الوظيفة، أو المكانة، أو الصحة، وكيف أن كل فقدان كان درساً في التواضع وفي إعادة ترتيب الأولويات. يدرك أن الحياة سلسلة من الوداعات، وأن التمسك بالأشياء يسبب الألم، بينما الاستسلام للتغير يجلب السكينة. يتعلم أن الفقد ليس نهاية، بل هو تحول، وأن الأحبة لا يموتون ما داموا في الذاكرة والقلب.

الفصل الخامس عشر

التقاعد وبداية الحرية الروحية

يتذكر يوم التقاعد، ذلك اليوم الذي اختفى فيه الزحام، وحل الصمت محل الضجيج. التقاعد في الفلسفة الاجتماعية هو مرحلة انتقالية صعبة بين الإنتاجية والفراغ، لكنه قد يكون بداية حرية روحية حقيقية إذا أحسن الإنسان إدارته. يتأمل في كيفية ملء الوقت بالمعنى لا بالأنشطة فقط، وفي اكتشاف الهوايات المؤجلة كوسيلة لاستعادة الذات التي ضاعت في زحام العمل.

يدرك أن العلاقة مع زوجته تعادت اكتشافها كرفيقة درب بعد انشغال السنوات بالأبناء والعمل. يتذكر ابتعاده عن الضجيج الاجتماعي، وتفضيله للهدوء، ويدرك أن

العزلة في الشيخوخة هي حاجة نفسية للتأمل ومراجعة الحسابات، وليست مرض اكتئاب. يتعلم أن الوحدة الإيجابية هي فضاء للإبداع واللقاء مع الله، حيث يصفو القلب من شوائب الدنيا.

الجزء الرابع

محطات الغروب نضج الروح والاستعداد

الفصل السادس عشر

الأحفاد ودورة الحياة المتكررة

يتذكر لحظة حمل أول حفيد، رؤية عينيه تشبه عينيه هو، تلك اللحظة التي أدرك فيها أن دورة الحياة تتكرر. الأحفاد في الفلسفة الوجودية هم رمز للخلود

البيولوجي والروحي، وهم الجسر الذي يربط الماضي بالمستقبل. يتأمل في الحكاية كجسر بين الأجيال، وكيف أن الجد هو حامي الذاكرة العائلية، وناقل الهوية والقيم عبر السرد الشفوي.

يتذكر صعوبة تعامله مع تكنولوجيا أحفاده، تلك الفجوة الرقمية التي تفصل بين عالمين، وكيف أنه يحاول فهم عالم جديد غريب عنه. يدرك أن الأحفاد يذكرونه بأن الحياة مستمرة بعده، وأن أسئلتهم البريئة عن الموت والجنة قد تكون أعمق من فلسفة الكبار. يتعلم أن الحب غير المشروط للأحفاد هو حب خالٍ من مسؤولية التربية المباشرة، مما يجعله نقياً وصافياً كالماء.

الفصل السابع عشر

المرض ومواجهة الهشاشة

يتذكر الآلام المزمنة، صعوبة الحركة، الاعتماد على الآخرين، وكيف أن الجسد في الشيخوخة يصبح سجناً يتضيق، ومرآة صادقة للعمر. المرض في الفلسفة الوجودية ليس شراً مطلقاً، بل هو طريق للتطهير الروحي، وللتقرب من المعنى الحقيقي للحياة. يتأمل في الاعتماد على الآخر كدرس تواضع عميق، وكسر للكبرياء الأنانية، وتعلم لقيمة العطاء عندما يصبح الإنسان محتاجاً للعطاء.

يتذكر زيارات الأطباء، والتقارير، والأدوية، ويدرك أن العلاقة مع الطبيب هي علاقة حياة وموت، وأن الكلمات الطبية تحمل وزن المصير. يتأمل في فلسفة الطب بين العلاج والتلطيف، وبين إطالة العمر وجودته، ويدرك أن الخوف تحول من الموت نفسه إلى عملية الاحتضار والألم. يتعلم أن الكرامة الإنسانية لا تسقط حتى في حالة العجز، وأن له حقاً في رعاية محترمة وفي رحيل بدون تعذيب طبي غير ضروري.

الفصل الثامن عشر

مراجعة الحسابات وأونتولوجيا الندم

يجلس الرجل في مقصورته، ويبدأ ميزان الحسنات والسيئات يترجح في ذهنه. يتذكر أخطاءه، ظلمه، إحسانه، ويدرك أن مراجعة الحسابات هي ضرورة نفسية ودينية قبل الرحيل، حيث يسعى الإنسان لتصحيح ما يمكن تصحيحه. يتأمل في فلسفة التوبة كعودة إلى الفطرة الأصلية النقية، وفي الندم في الشيخوخة كدليل على الحياة والوعي، وكجزء من التاريخ الشخصي الذي لا يمكن محوه.

يتذكر ندماً على كلمات قاسية، وفرصاً ضاعت، ويتصالح مع ندومه كجزء من إنسانيته. يدرك أن الشكر هو عدسة تغير رؤية العالم من النقص إلى الكمال، وأن الشيخوخة هي زمن الشكر الحقيقي. يتعلم أن التصالح مع الذات هو أعلى مراحل النضج النفسي،

حيث يتوقف الإنسان عن محاربة ظله، ويقبل نفسه كما هي، بعيوبها ونقائصها، سالماً مع نفسه قبل أن يلقى ربه.

الفصل التاسع عشر

الأخ ونصف الروح المنفصل

يقترب القطار من المحطة الأخيرة، فيستحضر الرجل صورة أخيه، شريك الطفولة، الدم الواحد. العلاقة بين الإخوة في الفلسفة الوجودية هي أعمق روابط الدم، حيث أن الأخ هو الشاهد الوحيد على الطفولة والأصل، ونصف الروح المنفصل في جسد آخر. يتأمل في البعد الجغرافي كجرح قديم، وكيف أن الغياب يزيد الحب قيمة، وكيف أن الوقت لا يمحو أثر الدم.

يدرك أن هذه الزيارة قد تكون الأخيرة لأحدهما، فهي

طقوس إغلاق لدائرة البعد، ومحاولة لاستعادة الزمن المفقود. يتأمل في فلسفة الوداع المسبق، حيث يعامل كل لقاء كأنه الأخير، وفي التشابه في الشيخوخة كدليل على المصير المشترك. يتذكر أن الجميع ينتهي إلى نفس المحطة بغض النظر عن الطريق، وأن المواساة تكمن في هذا المصير المشترك الذي يجمع كل البشر في النهاية.

الفصل العشرون

الوصول وأونتولوجيا الخلود

ينزل الرجل من القطار، يرى أخاه، يرى نفسه في المرآة، تلك الصدمة البصرية بالزمن حيث يرى كل منهما وجهه في وجه الآخر. العناق كالتحام للأرواح، وعودة للجسد الواحد الذي انقسم، وإشباع للجوع العاطفي القديم. يتأمل في الحديث كآلية لاستحضار الموتى عبر الذاكرة، وكيف أن ذكر الأهل الذين رحلوا

يجعلهم حاضرين في الغرفة، وفي قوة السرد في الحفاظ على الهوية العائلية.

يدرك أن هذه اللحظة هي كل ما يملك، لا ماضٍ ولا مستقبل، بل حاضر أبدي. يتأمل في فلسفة اللحظة الحاضرة كمكان الوحيد للوجود الحقيقي، وفي العيش في الآن كوصية للأحياء قبل الأموات. ينظر للقطار الذي سيواصل سيره، ويدرك أن الرحلة لم تنته، بل تحولت، وأن الحياة الحقيقية هي التي تبدأ بعد نزول القطار في هذه المحطة. يتصالح مع فكرة أن القطار يواصل السير، والعجلات تدور، والوقت يهرب، لكن الروح المؤمنة تبقى ثابتة في يقينها بأن هناك من ينتظرها في المحطة الأخيرة برحمة أوسع من السماء.

الخاتمة العامة

القطار يواصل السير نحو الأبد

أيها القارئ الكريم،

لقد أتممنا معاً رحلة هذا الرجل في قطار الزمن، من المحطة الأولى حتى المحطة الأخيرة. لقد رأينا عبر نوافذ ذاكرته كيف أن الحياة ليست سوى ظلال تمر على قضبان الزمن، وأن الأهم ليس سرعة القطار ولا فخامة المقصورة، بل من شاركنا الرحلة، وما تركناه من أثر طيب على المحطات التي مررنا بها.

تعلمنا أن الشيخوخة ليست نهاية، بل هي نضج الروح وقدرتها على رؤية الصورة الكاملة للوحة الحياة. تعلمنا أن الذاكرة هي وقودنا، والحب هو عربتنا، والأمل هو السكة التي تقودنا للنور. وتعلمنا أن الموت ليس ظلاماً، بل هو نفق للوصول إلى شمس الخلود.

هذا الكتاب ليس مجرد قصة رجل عجوز، بل هو مرآة لكل واحد منا، فكلنا ركاب في هذا القطار، وكلنا سنصل لنفس المحطة يوماً. فلنحسن إعداد حقائبنا

من العمل الصالح، ولنصفح قلوبنا من الضغائن، ولنقدر كل لحظة نعيشها، وكل شخص نلتقيه، فقد لا نراه مرة أخرى.

القطار يواصل السير، والعجلات تدور، والوقت يهرب، لكن الروح المؤمنة تبقى ثابتة في يقينها بأن هناك من ينتظرها في المحطة الأخيرة برحمة أوسع من السماء، وحب أعمق من المحيط.

فلتكن رحلتكم مباركة، ووصولكم آمناً، ولقياكم بربكم فرحاً مليئاً.

والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

تم بحمد الله وتوفيقه

الدكتور محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار والخبير والفقيه والمؤلف القانوني والمحاضر الدولي في القانون